

التحرير والتنوير

وقد لقي المسلمون في صدر الإسلام من أذى المشركين البأساء والضراء وأخرجوا من ديارهم وتحملوا مضر الغربة فلما وردوا المدينة لقوا من أذى اليهود في أنفسهم وأذى المشركين في قراباتهم وأموالهم بمكة ما كدر عليهم صفو حفاوة الأنصار بهم كما أن الأنصار لقوا من ذلك شدة المضايقة في ديارهم بل وفي أموالهم فقد كان الأنصار يعرضون على المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن حظ من أموالهم .

و (لما) أخت لم في الدلالة على نفي الفعل ولكنها مركبة من لم وما النافية فأفادت توكيد النفي لأنها ركبت من حرفي نفي ومن هذا كان النفي بها مشعرا بأن السامع كان يتربص حصول الفعل المنفي بها فيكون النفي بها نفيا لحصول قريب وهو يشع بأن حصول المنفي بها يكون بعد مدة وهذا استعمال دل عليه الاستقراء واحتجوا له بقول النابغة :
أزق الترحل أن ركابنا ... لما تزل برحالنا وكأن قد فنفي بلما ثم قال وكأن قد أي وكأنه قد زالت .

والواو للحال أي أحسبتم دخول الجنة في حالة انتفاء ما يتربص حصوله لكم من مس البأساء والضراء فإنكم لا تدخلون الجنة ذلك الخول السالم من المحنة إذا تحملتم ما هو من ذلك القبيل .

والإتيان مجاز في الحصول لأن الشيء الحاصل بعد العدم يجعل كأنه أتى من مكان بعيد .
والمثل : المشابهة في الهيئة والحالة كما تقدم في قوله تعالى (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) .

والذين خلوا : هم الأمم الذين مضوا وانقرضوا وأصل خلوا : خلا منهم المكان فبولغ في إسناد الفعل فأسند إليهم ما هو من صفات مكانهم .

و (من قبلكم) متعلق بخلوا لمجرد البيان وقصد إظهار الملازمة بين الفريقين .
والمس حقيقته : اتصال الجسم بجسم آخر وهو مجاز في إصابة الشيء وحلوله فمنه مس الشيطان أي حلول ضر الجنة بالعقل ومس سقر : ما يصيب من نارها ومس الفقر والضر : إذا حل به وأكثر ما يطلق في إصابة الشر قال تعالى (وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه) (وإذا مس الإنسان الضر دعانا) (وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) (ولا تمسوها بسوء) فالمعنى هنا : حلت بهم البأساء والضراء .

وقد تقدم القول في البأساء والضراء عند قوله تعالى (والصابرين في البأساء والضراء) .

وقوله (وزلزلوا) أي أزعجوا أو اضطربوا وإنما الذي اضطرب نظام معيشتهم قال تعالى (هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) والزلزلة تحرك الجسم من مكانه بشدة ومنه زلزال الأرض فوزن زلزل فعفل والتضعيف فيه دال على تكرار كما قال تعالى (فككبوا فيها) وقالوا لملم بالمكان إذا نزل به نزول إقامة .

وحتى غاية للمس والزلزال أي بلغ بهم الأمر إلى غاية يقول عندها الرسول والذين معه متى نصر الله .

ولما كانت الآية مخبرة عن مس حل بمن تقدم من الأمم ومنذرة بحلول مثله بالمخاطبين وقت نزول الآية جاز في فعل يقول أن يعتبر قول رسول الأمة سابقة أي زلزلوا حتى يقول رسول المزلزلين ف " أل " للعهد أو حتى يقول كل رسول لأمة سبقت فتكون " أل " للاستغراق فيكون الفعل محكيا به تلك الحالة العجيبة فيرفع بعد حتى ؛ لأن الفعل المراد به الحال يكون مرفوعا و برفع الفعل قرأ نافع وأبو جعفر و جاز فيه أن يعتبر قول رسول المخاطبين عليه السلام فال فيه للعهد والمعنى : وزلزلوا مثلهم حتى يقول الرسول فيكون الفعل منصوبا ؛ لأن القول لما يقع وقتئذ وبذلك قرأ بقية العشرة فقراءة الرفع أنسب بظاهر السياق وقراءة النصب أنسب بالغرض المسوق له الكلام وبكلتا القراءتين يحصل كلا الغرضين . ومتى استفهام مستعمل في استبطاء زمان النصر .

وقوله (ألا إن نصر الله قريب) كلام مستأنف بقرينة افتتاحه بآلا وهو بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رعبا والقصد منه إكرام هذه الأمة بأنها لا يبلغ ما يمسه مبلغ ما مس من قبلها . وإكرام للرسول A بآلا يحتاج إلى قول ما قالت الرسل قبله من استبطاء نصر الله بأن يجيء نصر الله لهاته الأمة قبل استبطائه وهذا يشير إلى فتح مكة .

(يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم [215]) E A